

الأسس الفكرية و الايستيمولوجية للمنطق

د. دراس شهرزاد¹

1- ما هو المنطق؟

يُحِيل مصطلح "المنطق"، أول ما يحيل على العقل. إذ يتم عادة الفصل من جهة بين مختلف تجليات العمل العقلي من عصر لآخر، وفي هذا الحقل أو ذاك وضمن هذه الثقافة أو تلك، لاختلاف مظاهر التعقل تبعاً لتباين التوجهات واختلاف الأشياء والموضوعات المبحوثة هنا وهناك.

ومن جهة ثانية بين مفهوم العقل كملكة خالصة منفصلة عن استعمالاتها الخاصة أو الظرفية والمتغيرة... والمتصفة في ذاتها بمجموعة من الخصائص الثابتة "فيظهر إذن أن ثمة بعضاً من السمات الثابتة لا بد أن تميز بذاتها استعمال العقل، وذلك باستقلال عن الموضوع الذي يتناوله وعن مرحلة التطور التي يكون قد بلغها تعقلنا للأشياء"⁽²⁾، وإذن فإن استثمار هذه السمات الثابتة يبدو مشغلة دائبة لعلم كان له يدعى "المنطق".

جرى التقليد في الأبحاث والدراسات التي تعني بالمنطق أن تعرضه من حيث هو علم البرهاني، يذكر لنا **لاند** في مفرداته الفلسفية بصدد مصطلح (Logique): "المنطق أحد أقسام الفلسفة إنه العلم الذي يكون موضوعه تحديد ما هي، من بين جميع العمليات العقلية الهادفة إلى معرفة الحقيقي، تلك التي تكون صحيحة وتلك التي لا تكون كذلك" ثم يورد على عاداته عدداً من التعريفات لا تخرج في جملتها عن هذا المعنى فـ **كينيس** (KEYNES) يجعل من المنطق "العلم الذي يدرس المبادئ العامة للفكر الصحيح (La pensée Valide)" أما **دومورغان** (De Morgan) فلديه أن المنطق: "فحص لذلك الجزء من الاستدلال الذي يتقوم على الكيفية التي تتكون بها الاستنباطات دون التفات لحقيقة الوقائع أو الآراء أو التخمينات (...). فما يشغل المنطق هو معرفة صدق الاستنباطات تبعاً لصدق المقدمات"⁽³⁾.

لقد تم دائماً تعريف المنطق تبعاً لتحديدات مشابهة ومقاربة يتم فيها التأكيد على عالميته وشموليته وضروريته... وعلى اشتغاله حصراً بـ "**الحقائق المنطقية**"، أو ما ينعتة **كانط** كونه الماهية المنطقية (Ess conceptus) وهي على خلاف الماهية الطبيعية أو الواقعية (Ess rei) للأشياء تلك التي نظل عاجزين أبداً عن إدراكها⁽⁴⁾. إن واحدة من تلك "السمات الثابتة" لن تكون والحال هذه إلا قدرة العقل على تجاوز كثرة ما تواجهه

¹ أستاذة محاضرة بجامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة.

² -Granger (G.G) la raison, P.U.F, 1974,P41

³ -Lalande (A), Vocabulaire et technique et critique de la philosophie, PUF,1983P872 et passim.

⁴ -Kant(E), Logique, JVRIN, (France),1966,P68

به التجربة من موضوعات شتى لاستجلاء "الموضوع" الواحد المطلق الكامن خلفها أو الموزع في ثناياها. فما كان لتلك الكثرة من الموضوعات أن تدرك عقليا لو لا أن ثمة هذا الموضوع الواحد المطلق الذي يشملها ويشترط إمكانية إدراكها ذاتها، وهذا يعني أن المنطق وفي حين لا يبحث في شيء واقعي محدد، كما هو الشأن في الفيزياء مثلا، فهو يبحث على نحو ما في كل الأشياء منذ أن تتحول هذه إلى تصورات خالصة التجريد وما ينشأ بينها حينئذ من علاقات. فالشغل المنطقي يقصر نفسه على هذه التصورات أو العلاقات أو "المعاني من حيث هي موضوعة للتأليف الذي تصير به موصلة إلى تحصيل شيء في أذهاننا ليس في أذهاننا، لا من حيث هي أشياء موجودة في الأعيان كجواهر أو كميات أو كصفات أو غير ذلك" - كما يقول ابن سينا (ت 428هـ) -⁽⁵⁾، وهذا ما سيؤدي في نهاية الأمر إلى نظرة جديدة للمنطق يعبر عنها ف. غونزيت (F. GONZETH) - حين يقول: "المنطق هو فزياء الموضوع أيا كان La Logique et la physique de l'objet quelconque"⁽⁶⁾، وليس هذا بالضرورة مذهب التجريبيين في المنطق فهم على أية حال لا يفصلون بين عالمي التصورات والأشياء، وكما يجزنا لاند "يذهب التجريبيون الحسيون إلى أن منطقنا لا بد أن يكون الأثر الذي تركه فينا منطق الأشياء"⁽⁷⁾.

من جهة أخرى تم الإلحاح، لدى بعض التيارات على أن المنطق لا شأن له باللغة وإنما قضيته هي الأفكار والمعاني والتصورات التي متى رتبت على نحو مخصوص نشأ منها علم جديد مجهول للذهن من قبل. لقد كان أبو النصر الفارابي (ت 339هـ) واحد من الذين رافعوا لصالح إبعاد الالفاظ من عناية المنطق، فقد كتب مثالا: "بين أن الأشياء التي ترتب فيشرف بها الذهن على شيء كان يجهره قبل ذلك فيعلمه ليست هي ألفاظ ترتب، إذا كان ما يشرف به الذهن بهذا الترتيب أشياء في الذهن والألفاظ إنما ترتب على اللسان فقط"⁽⁸⁾. بينما تتجه تيارات أخرى إلى التشديد على علاقة المعاني بالألفاظ. فتعلقنا للعالم لا يتأتى إلا بتوسط اللغة، وعليه فإن "علاقة المنطق باللغة تحول دون وهم وجهة النظر المتعالية التي يمثل أمامها الواقع في جملته دون أية بقية"⁽⁹⁾. حتى إذا كانت هذه البقية "هي الحامل اللغوي الذي لا مصرف عنه" لأن صورنا عن العالم تأتي مصبوبة في لغة (...) فلا وجود لشيء يشبه أن يكون معقولة خالصة متحررة من اللغة"⁽¹⁰⁾ والموقف ذاته نجده لدى فتجنشتين الذي يرى أنه "من بعض مصادر الأخطاء أن يتم الحديث عن نشاط ذهني بخصوص الفكر، فالمسألة لدينا أن الطابع الأساسي للفكر هو أنه نشاط يستخدم العلامات".

⁵ - ابن سينا (أبو علي) منطق المشرقين، دار الطليعة (لبنان) 1982، ص 31

⁶ - Gonzeth(F) qu'est ce que la logique ? extrait in : philosophie des sciences, S. Daval-B Guilmmain, PUF 1959,p34

⁷ - لاند(أ) العقل والمعايير (ترجمة نظمي لوقا)، الهيئة المصرية للكتاب، (مصر) 1979، ص 109

⁸ - الفارابي (أبو نصر) كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق (تح: محسن مهدي) دار المشرق (لبنان) ب.ت ص 100 وما يليها

⁹ -³ - بونير (روديجر) الفلسفة الألمانية الحديثة (ترجمة فؤاد كامل)، دار الشؤون الثقافية العامة (العراق)، 1986، ص 231.

4 - Meyer(M) Logique, langage et argumentation, Hachette (France), 1982P76

وربما وجدنا لدى ج. ديوي (J. DEWEY) طرحا إشكاليا شاملا لمسألة ما هو المنطق؟ فـ "على هذا الموضوع يثور الجدل (...). فيقال مثلا أن المنطق هو علم القوانين الضرورية للفكر، أو أنه نظرية العلاقات المنظمة، أي العلاقات التي تستقل بوجودها عن الفكر". ثم يستعرض ديوي عددا من وجهات النظر المحتملة بهذا الخصوص، وفحواها: أن طبيعة الموضوع المنطقي إما أن يكون قوامها "الإمكانات الخالصة ومعنى "الخالصة" هنا أن تلك الإمكانات لا تعتمد في وجودها على الوجود الفعلي" وهذا رأي، ورأي آخر يجعل قوام طبيعة المنطق "الثوابت التي نقيم عليها نظام الطبيعة"، ورأي ثالث يقول أنها "قوام البناء العقلي للكون" وأخيرا الرأي الذي يذهب إلى أن "المنطق معني بالبناء الصوري للغة باعتبارها نسقا من رموز"⁽¹¹⁾. وحسبنا أن هذه الآراء على تنوعها تعطينا فكرة عن طبيعة النقاش الذي قد يستثيره تعريف المنطق.

2- جوانب من الفحص الاستيمولوجي للمنطق الأرسطي:

إن المسألة الاستيمولوجية، لا تكاد تترك بينها وبين الموضوع المعرفي (=الواقع المبحوث)، تعلق الأمر بالمنطق أو بغيره، مسافة مهمة، فالإستيمولوجية التي هي "معرفة المعرفة" لا تتم إلا من خلال المعرفة نفسها، أي من داخل بناءاتها المفهومية وأنساقها النظرية ولغاتها الرمزية. وعني هذا ما يقول غاستون باشلار (G BACHLARD): "هناك بالنسبة لأي مفهوم علمي خطأ يتوجب تصويبه، وقبل الشروع في أية معرفة موضوعية يتوجب تحليل العقل تحليلا نفسانيا، ليس فقط بشكل عام، وإنما أيضا في مستوى كل المفاهيم الخاصة"⁽¹²⁾.

فالإستيمولوجية بهذا هي انعكاس المعرفة على نفسها ولكن على مستوى المفاهيم والمخططات التفسيرية والنظريات والقوانين والأنساق الصورية فحسب، وربما أمكن لنا استبصار الدائرة النقدية التي تتحرك فيها المسألة الإستيمولوجية للمنطق من خلال عرض مجمل نسوقه على سبيل التعرف العام. سنلاحظ أولا ومع كانط (E.Kant) إنه: "من الصعب أحيانا أن نعرف مقصود علم معين. وعلى ذلك فإن العلم يزداد دقة كلما أمكن لنا أن نختصه بمفهوم محدد فحينئذ سنتجنب كثيرا من الأخطاء ذات الأصول المتعددة والتي قد تتسرب في تعريفنا إذا لم نتوصل إلى تمييز هذا العلم عن العلوم القريبة منه"⁽¹³⁾. لقد عانت المعرفة المنطقية تخصيصا من كثير من مشكلات التعريف هذه. فحدود المنطق إن كانت للمنطق حدود- تتداخل مع علوم اللغة، كونهما تشتركان في الموضوع ذاته أي الأقوال أو في الموضوع اللغوي (حتى لو أنكر المنطق أن تكون اللغة بذاتها موضوعا له).

ثم هو يتداخل مع الرياضيات كونه يعتمد على آليات التبدية (Axiomatisation) والصورنه (Formalisation) والبرهنة (Démonstration) وهي بذاتها آليات العمل التريضي.

¹¹ -ديوي (جون) المنطق: نظرية البحث (ترجمة ز.ن. محمود) دار المعارف (مصر)، 1960، ص. 54-55

¹² -باشلار (غاستون)، فلسفة الرفض، (تر: خ.أ. خليل) دار الحداثة (لبنان) 1985، ص 26

¹³ -Kant(E) logique, Op,cit, p21

إن تعريف المنطق تعريفا يأخذ في اعتباره سائر جوانب هذا العلم، لا بد أن يلاحظ فيه أن المنطق هو العلم الذي يعني بالقواعد التي ينبغي للفكر أن يراعيها كي يتحرى الصواب ويتجنب الوقوع في الخطأ. فالمنطق بهذا اشتغال على تلك القواعد بما هي قواعد الاستدلال الصحيح ولا بد لهذا التعريف أن يواجه جملة من الأسئلة:

ما الفكر؟

ما الصواب والخطأ؟

وأي هي تلك القواعد؟

ما الاستدلال؟

وما الصحة؟

فإذا أخذنا الأمر من ناحية موضوعة (Thème) "الفكر" قيل: "الفكر نزوع الذهن فهم الواقع الخارجي عنه من جهة وجهة أخرى إلى بحث نفسه من حيث هو عمل بحث وفهم فإن حصرنا الأمر في الجهة الثانية لزم حصول علم يكون موضوعه فكر الفكر أو فهم الفهم، وليس ذلك إلا المنطق لأنه وعلى رأي كانط:

" إن المسألة في المنطق هي: كيف يتعرف الفهم (Entendement) على ذاته"⁽¹⁴⁾. فإذا أخذنا

المنطق من ناحية موضوعة الصواب والخطأ قيل: الصواب/ الخطأ أو الصدق/الكذب قيمتان منطقيتان تحصلان من جهة معيار المطابقة أي المطابقة فكر/ واقع أو المطابقة فكر/ فكر. فإذا كانت الأخرى كان المنطق- كما جرى التقليد أن يقال- ماديا أو تطبيقيا أو تجريبيًا استقرائيا. أما إن كانت الأخرى كان المنطق صوريا تحليليا شأن منطق أرسطو، فيكون شغله في هذه الحالة حصرا في مسألة: ما هو الحقيقي؟ وما هو الصادق؟ ولزم من ذلك أن يكون موضوع المنطق هو الحقيقة بما هي بناء منطقي أو اختصارا "الحقيقة المنطقية"، فعلى ذلك نجد فريجة (G.FREGE) "يميز المنطق بقوله أنه في حين تكون الحقيقة هدفا لجميع العلوم، فإنه بالنسبة للمنطق لا تكون الحقيقة هدفا فحسب، ولكنه الموضوع الذي تتم دراسته"⁽¹⁵⁾، على أن مسألة الحقيقي أو الحقيقة (La question de la vérité) هي المسألة كلها! ذلك أن: "السؤال الذي يطرح ها هنا هو معرفة فيما إذا كان هناك، وتبعا لأي مقياس معيار للحقيقة حيث يكون يقينيا وكليا وناجعا في عمليته. إذ أن ذلك هو معنى السؤال: ما هي الحقيقة؟"⁽¹⁶⁾.

أما إذا أخذنا المنطق من ناحية موضوعة القواعد قيل: القواعد مبادئ وأصول، وكيفيات منهاجية تخص تكوينية القول المنطقي في كليته فأول مراتب هذه التكوينية يدعى "الحد" (Terme) فلزم منه قواعد تخص الحدود

¹⁴ -Id-Ibid,P13

¹⁵ -Bouveresses(J) qu'est ce que la logique ? in : interrogation contemporaine. FAYARD (Frc) 1980,P334

¹⁶ -Kant(E) Op,cit,P55

فإذا أُلّف بين حدين على نحو مخصوص كان لنا من ذلك مكون يدعى "القضية" (Proposition) فلزم منه قواعد تخصها، فإذا أُلّف بين القضايا على نحو مخصوص حصل لنا من ذلك مكون يدعى "القياس" (Syllogisme) فلزم منه قواعد تخصه هذا على ما استشارته تلك المكونات من مواقف وردود معارضات حيث قدر للمنطق (المنطق الأرسطي بالأساس) أن يمر. فلقد قال فرانسيس بيكون (F.BACON) وهو من أشهر معارضي أرسطو: "القياس يتركب من قضايا وهذه تتركب من حدود، والحدود لا قيمة لها إلا قيمة التصورات العامة (Notions) فلهذا السبب وإذا كانت التصورات العامة (كونها النقطة الأساسية) غامضة وراجعة إلى تجريد متسرع فلا قوة لكل ما سيبني عليها..."⁽¹⁷⁾. ربما تم الإصطلاح على تلك القواعد بمصطلح "الثوابت المنطقية" (Constantes Logiques) وهكذا فإن: "المنطق - تبعاً لـ كواين (Quine) هو دراسة الحقائق المنطقية، ويعتبر حقيقة منطقية كل حقيقة لا تكون كذلك إلا بالنظر إلى استنادها إلى الثوابت المنطقية"⁽¹⁸⁾.

أما إذا أخذنا المنطق من ناحية موضوعة "الاستدلال" قيل: الاستدلال انتقال من أقوال (=قضايا) متى سلمت لزمّت عنها لذاتها (=لزوماً ضرورياً) أقوال (=قضايا) ناتجة فتكون الأولى مقدمات، والثانية نتائجها وتدعى التقدمات براهين إن كان قوامها أمور يقينية فيكون الاستدلال بذلك استدلالاً برهانياً مستنداً إلى مبدأ الضرورة المنطقية (=مبادئ العقل)، فإن كان انتقال من عام إلى خاص جعلناه استنتاجاً أو كان من خاص إلى عام جعلناه استقراء.

أما إذا أخذنا المنطق من ناحية موضوعة "الصحة" (Validité) قيل لا يتم الاستدلال البرهاني إلا بمراعاة القواعد التي تخص تفصيلاً تكوينية القول المنطقي والتي تجعل الاستدلال يترتب وفق صورة مخصوصة، فإذا حصلت تلك المراعاة وحصلت معها تلك الصورة كان الاستدلال صحيحاً صحة صورية، ولا شك أن مبحث الصحة المنطقية يكاد يكون ذاته مبحث الحقيقة المنطقية، وهذا أمر سار عليه التقليد، إذ "من وجهة تقليدية - كما يوضح ج. بوفريس (J. BOUVERESSE) فإن المنطق قد تكفل بمهمتين أساسيتين: التمييز الملائم لفكرة الحقيقة المنطقية الصحيح"⁽¹⁹⁾. وهنا تطرح مسألة أساس الصحة المنطقية. فإذا كنا نتقبل استدلالاً ونتائجها وفقاً لمعيار الصحة الصورية فطبقاً لأي معيار نتقبل معيارية الصحة الصورية ذاتها تلك التي بموجبها نتقبل الحقيقة على أنها كذلك؟ ولعلنا نجد لدى م. ماير (M. MEYER) صياغة مناسبة لهذه المشكلة: "المنطق اشتغال على الاستدلالات والبراهين ذات الصحة الصورية. إن برهاناً يكون صحيحاً صورياً عندما يضمن صدق المقدمات صدق النتيجة، وذلك بالنظر إلى الصورة والصورة وحدها (...). إن المنطقة نادراً ما يتساءلون عن الأمر الذي يجعل

¹⁷ -Bacon(F) Novum Organum (Trdfrc) HACHETTE(Frc) 1980,P334

¹⁸ -Meyer(M) ,Op, cit, p81

¹⁹ -Bouveresse(J)Op,cit, p332

الرابط الصوري علة في قبول النتيجة، فعندما نتمسك بالطابع الحاسم للحقيقة المؤسسة صوريا، كونه يفسر قبول النتيجة دون نقاش، فإن السؤال سيبقى هنا معرفة الأمر الذي يعطي للحقيقة صفة الإقناع⁽²⁰⁾.

والحال أن أي مكون من مكونات المعرفة المنطقية في مظهرها التقليدي أو المتطور كفيل أن يطرح لوحده عددا من المعضلات والمسائل النقدية، هذا إذا بقينا في الحدود الخاصة أو الداخلية لتلك المعرفة أما إذا نظرنا إلى المنطق من زاوية علاقته بالعلوم الأخرى وتطورها التاريخي، فإن المسألة الإستيمولوجية تأخذ أبعادا وتعقيدات لا نهاية لها، وتاما مثلما يقول غاستون باشلار: "لقد كان الموضوع القابل للاستقرار، الموضوع الجامد، الشيء المستكين، يشكل مجال تحقق المنطق الأرسطوطاليسي والآن تمثل أمام الفكر الإنساني مواضيع أخرى ليست قابلة للاستقرار (...). إذن سيتوجب إجراء التعديل بطريقة ما وتحويل لعبة القيم المنطقية، وباختصار من الضرورة بمكان تعيين عدد من المنطقيات قدر ما يوجد من أنماط المواضيع على إطلاقها"⁽²¹⁾.

ومن اللافت للنظر هنا أن ف.بيكون منذ قرون "بقدر ما أن العلوم وفي الوضع التي هي عليه اليوم لا يمكن لها أن تخدم تقدم الصناعة، بقدر ما أن المنطق [يقصد المنطق الأرسطي] كما يوجد لدينا اليوم، لا يمكن له أن يخدم تقدم العلم"⁽²²⁾.

لعل المفارقة مع المنطق أنه وهو الذي يعطي الوضوح، يفتقد في ذاته إلى الوضوح! لكأنه- وعلى خلاف الحكمة السائرة- فاقد الشيء يمكن له أن يعطيه. وربما كان لنا أن نقول مع أ. ريموند (A.RAYMOND) "على العكس مما قد نتوقع، فإنه لمن العسير جدا التعريف والدقة اللازمة بمجال ومهمة المنطق، ففي حين كان ينتظر من المنطق أن يكون من بين سائر العلوم الأفضل تأسيسا، فإننا لن نجد ما هو الأكثر تعرضا لمناقشة أسسه من المنطق ذاته، وهذا أمر يستدعي الغرابة، ألسنا عندما نقول عن حقيقة أنه تمت برهنتها منطقيا سيعني أنها أدركت منتهى الدقة الممكنة!"⁽²³⁾.

²⁰ -Meyyer(M),Op,cit,pp81-82

²¹ -باشلار (غاستون) مرجع مذكور ص 124

²² -F. Bacon,Novum Organum p8,prg11

²³ -Cite in Brunschvicg (L) les âges de l'intelligence, PUF 1953,P19.

